الباب الثانى

الفـــرق

مقدمة:

جاء الإسلام وأخذ بيد الناس إلى العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد لا إله إلا الله. محمد رسول الله.

ودعا الكل إلى هذه العقيدة قال تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]

كما أخذ بيد الناس إلى الأخوة الصادقة التى بينت على توحيد الله، وأنه وحده هو المحاسب وأن الناس جميعًا سواسية لا فضل لأحد منهم على أحد قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[2]

وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من دعا إلى عصبية، ليس منا من قاتل على عصبية ليس منا من مات على العصبية".

وبذلك وجد المسلمون أنفسهم أخوة بغض النظر عن الجنس واللون وحرس الإسلام هذه الأخوة ببيان الحقوق والواجبات، وضمان الأرزاق ولفت نظر الناس إلى اليوم الآخر، وأن كل إنسان محاسب ـ لا محالة ـ على ما عمل، وبيان فضل الإصلاح وستر العيوب.. إلخ.

هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين يرعاهم، والصحابة متآخون يلتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويفدونه بالنفس والمال والولد.

---

(١) آل عمران آية ٦٤.
(٢) الحجرات آية ١٣.

ومع ذلك هناك منافقون يحاولون الوقيعة بين الأخوة ويفترصون لذلك الفرص، مستغلين فى ذلك ما كان بين العرب قبل الإسلام.

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم منتبه لما يدبره العدو، يعالج الأمور بتوفيق الله سبحانه حتى تبقى للأمة وحدتها.

وينتقل الأعداء من دور الوقيعة إلى دور إثارة الأسئلة حول العقيدة وما يتصل بها.

وقد تقدم أن الأمة العربية كانت تدين بعقائد متعددة من وثنية ويهودية ونصرانية ومن اليهود والنصارى كانت تثار أكثر الأسئلة.

وكان فى اليهود عناد ومكر واستعداد للتحالف مع أى قوة ضد الإسلام حتى ولو كان ذلك على حساب الدين عامة كقولهم لعبدة الأصنام أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلا.

والمشركون كانوا يجادلون دفاعًا عن دياناتهم.

وكان جدا لهم إما من عند أنفسهم، وإما باستعانتهم بأهل الكتاب خاصة اليهود الذين كانوا يلقون إليهم الأسئلة التى يوجهونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴿١٢١﴾ ﴾ (١)

وكان القرآن ينزل بالرد على الشبهات التى يثيرونها، ومع رده يأمر المسلمين ألا يستعملوا العنف فى جدالهم قال تعالى" ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢)

وكانت المجادلة تدور حول أمور كثيرة منها:

---

(١) الأنعام آية ١٢١.
(٢) العنكبوت آية ٤٦.

الرسالة والرسول: فالمشركون يستبعدون أن يكون هذا الكلام من عند الله سبحانه ويصفونه بأنه "أساطير الأولين" وفى الوقت نفسه يستبعدون أن يكون محمد رسولاً، لماذا لم ينزل القرآن على عظيم، والعظمة يتصورونها بمقاييس الجاهلية يقول سبحانه "﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[1]

ثم يجادلون فى المعجزة، وأنهم لن يؤمنوا إلا إذا تغير وجه الجزيرة العربية، يقول سبحانه: "﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[2]

ومما كان يزيد الأمر صعوبة فى هذا الموضوع ـ موضوع الرسالة ـ أن الخصم فيما بينه وبين نفسه كان يعرف صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنه لا يرضى أن يعترف بذلك كبرًا وعنادًا وجريًا وراء مصالح دنيوية قال تعالى:

"﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[3]

ويقول سبحانه: "﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[4]

وفى غير الرسالة يدور الجدال حول الوحدانية والبعث والمساواة بين الناس وكانت هذه كلها من المسائل التى شغلت معظم القرآن الكريم، والعدو ليس معه من حجة إلا تقليد الآباء والأجداد، أو استبعاد أن يكون الأمر كذلك، ويقف

---

(١) الزخرف آية ٣١
(٢) الأسراء آيات ٩٠ ـ ٩٣.
(٣) البقرة آية ١٤٧.
(٤) الأنعام آية ٣٣.

القرآن الكريم وقفات عند مسألة تقليد الآباء وأن هؤلاء الآباء كثيرًا ما يكونون على ضلال فهل يترك العامل عقله ليسير وراء ضلالهم قال تعالى: "﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (١)

ويستمر الجدال والقرآن ينزل على رسوله الله صلى الله عليه وسلم ليأخذ بيد الناس إلى الهدى.

وإذا بالمعارضين يستسلمون تباعًا ويخضعون عن اقتناع للإسلام الذى كانوا يعارضونه، ويدخلون فى دين الله أفواجًا.

وكان كل من يدخل فى الإسلام بإخلاص لا يعود إلى الجدال مرة أخرى بل يأخذ ما جاء به الإسلام كما جاء دون اعتراض أو تساؤل عما وراء ذلك.

إنه آمن بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً، وبالقرآن كتابًا، فلم الجدال بعد ذلك؟

وإذا كانوا يسألون فإنما يسألون عن أحكام لا تسير الحياة إلا بها: حكم الظهار حكم الخمر كيف يعامل اليتيم... إلخ والقرآن الكريم ينزل بالجواب فى كل هذا.

---

(١) البقرة آية ١٧٠

بدء الخلاف

كان من الضرورى أن يحصل خلاف:

أولاً: هذا شأن الحياة فما من مجتمع فى هذه الحياة إلا ويحصل فيه خلاف.

ثانيًا: الحياة لا تقف بل تسير وتتغير، وهناك المشاكل التى تجد ولم تكن موجودة من قبل.

وهذه المشاكل تحتاج إلى حل ومادامت المسألة ليس فيها نص فلابد من اختلاف وجهات النظر.

ثالثًا: لم يكن الإخلاص يعم كل هذا العدد الذى دخل الإسلام، بل منهم من دخل وكله حقد على الإسلام.

رابعًا: الميراث الثقافى الذى لا ينسى بسهولة.

لقد كان هناك فرق كبير فى هذه الناحية بين السابقين واللاحقين فالوثنى حين يسلم كان ينظر إلى ما كان عليه قديمًا كأنه حلم من الأحلام ويعجب كيف جاز منه - وهو العاقل - أن يعبد صنمًا ويدعو جمادًا لا يسمع و لا يبصر.

ومن هنا كان الإسلام يقضى حقيقة على كل العقائد السابقة عند هذا الوثنى ولكن ربما بقيت عند ضعاف الإيمان بعض عصبيات قبيلة[1].

أما المزدكى أو المانوى أو النصرانى الذى يسلم فإن عقيدته القديمة غالبًا ما تبقى محتلة جزءًا أساسيًا من فكره، لا يكاد يستطيع أن يتخلص منه إن أراد، فكيف وكثيرًا ما كان هو يميل إلى استصحاب عقيدته السابقة معه.

---

(١) كتلك التى كانت بين القحطانيين والمضريين وسيكون لها أثرها فى الخلافات التى لبست الثوب الدينى بعد ذلك. ولكن الفرق كبير بين القحطانى الذى يحمل نوعًا من العصبية وبين المانوى - مثلاً - الذى يظهر الإسلام؛ لأن المانوى له خطة يريد تنفيذها ليصل إلى هدف معين لإحياء دينه القديم، وهذا ما لم يكن عند القحطانى بكل هذه التفاصيل.

خامساً: وهو مبنى على ما سبق قبل أن نقول هذه المسألة أو تلك كانت سبب الخلاف يجب أن نعطى اهتمامًا كبيرًا لتغير النفوس، ومن ثم أصبح يؤثر فيها ما لم يكن يؤثر من قبل.

أضرب لذلك مثلاً بأهم مسألة فرقت بين المسلمين وهى الخلافة نجد أن المسلمين اختلفوا فى ذلك عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما اختلفوا فى ذلك عقب وفاة عثمان رضى الله عنه وهنا نجد الفرق واضحًا بين الحالتين فى النتيجة.

فعند الاختلاف على أبى بكر رضى الله عنه نجد المعارضين يلتزمون الآداب الإسلامية.

لقد عارض المعارضون فلما وضحت الأمور أمامهم وعرفوا حجة أبى بكر بايع من بايع ومن امتنع عن البيعة وقف عند حدود الشرع، ولم يخطر بباله أن يشق عصًا للطاعة وبقى كذلك حتى تبين له الحق فذهب مبايعًا.

هذا ما كان عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما عقب وفاة عثمان رضى الله عنه فإننا نجد المخالف يبادر إلى سيفه يحمله ليقاتل الحزب المعارض.

وهنا نجد المؤثر واحدًا والأثر مختلفًا.

ما السبب إذًا؟

السبب هو حال المسلمين عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم حالهم التى قد تغيرت عقب وفاة عثمان رضى الله عنه.

فقد تولى عثمان الخلافة بعد عمر رضى الله عنهما،

وعثمان من السابقين الأولين وله أياد بيضاء على الدعوة فقد كان سببًا فى دخول عدد فى الإسلام فى أول الدعوة، وكثيرًا ما ساعد بما له ولقد كان معظم نفقة جيش العسرة من ماله الخاص وهو من العشرة المبشرين بالجنة، والملقب بذى النورين؛ حيث زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم رقية فلما ماتت زوجة بعدها أم كلثوم ولكن فى عهده كان قد كثر الداخلون فى الإسلام وليس لهم من الدين إلا الاسم فقط.

ومنهم من دخل وهمه الأول الكيد للإسلام الذى قضى كما يعتقد ـ على ملكه، فلم يجد أمامه طريقًا لأخذ ثأره إلا الكيد للإسلام، وبدأ هؤلاء الحاقدون يثيرون

الاضطرابات فى وجه عثمان رضى الله عنه ويتهمونه بأمور هو منها براء، فقد كان له من دينه حارس يحرسه من الوقوع فى محرم.

ولكن الواقع أن الفتنة قامت ولم تقعد حتى الآن، وقتل عثمان رضى الله عنه. وهنا انفرط عقد الأمة.

فلما تولى على رضى الله عنه الخلافة بعد عثمان لم يكن هناك إجماع على بيعته بل اختلف الناس عليه: البعض معه، والبعض عليه.والبعض اعتزل الفتنة وقامت الحرب وانقسم الناس إلى فريقين: فريق مع على وفريق مع معاوية، وعلى معروف بشجاعته النادرة، وبعد أن اقترب من النصر كانت مهزلة التحكيم حين أشار عمرو بن العاص على معاوية بأن يرفع الناس المصاحف على أسنة الرماح إشارة إلى تحكيم كتاب الله كما قالوا.

كانت مهزلة التحكيم التى خرج منها على بجيشه وقد انشق على نفسه حيث رآى الخوارج أن عليًا أخطأ بقبوله التحكيم، وانشقوا على على وخرجوا عليه ولذلك سموا بالخوارج.

وكان من قدر الله تعالى أن قتل على رضى الله عنه، وتنازل الحسن لمعاوية ومن هذا الخلاف نبتت الفرق السياسية التى أصبحت فرقًا دينية فقد ظهرت الشيعة والخوارج.

وبدأ النقاش والجدل حولى مسائل جُدت ولم تكن موجودة قبل ذلك. فالجدل حول الخلافة ومرتكب الكبيرة وصلة العمل بالإيمان، والقضاء والقدر.

وبرغم أن الجدل كان سياسيًا إلا أنه لبس ثوب الدين فى كل نقطة فيه.

وكانت المغالاة فى الاتجاه إلى أحد الطرفين وعند ذلك يكون التوسط فتكون فرقة جديدة.

وأهم هذه الفرق:

١ـ الشيعة ٢ـ الخوارج ٣ـ الجبرية ٤ـ المرجئة ٥ـ المعتزلة ٦ـ الاشعرية

وإليك بيان هذه الفرق.

الفصل الأول

الشيعة

الشيعة

تطلق كلمة الشيعة[١] على الذين شايعوا على بن أبى طالب رضى الله عنه، وقالوا: إنه الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنص، إما جليا، وإما خفيًا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه، وعن أولاده، وإن خرجت فإما بظلم يكون من غيرهم، وإما بتقية منه ومن أولاده[٢].

وهذه الفرقة ـ كما ترى نشأت نشأة سياسية، إلا أنها أدخلت الدين فى الحكم على الموافق والمخالف.

ولا يمكن تحديد الوقت الذى نشأت فيه هذه الفرقة بالضبط، فإن عليًا كرم الله وجهه كان له محبون حتى فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عم الرسول الذى تربى فى بيت النبوة. وكان أول من أسلم من الصيان، وهو الذى بات فى فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة. معرضًا بذلك حياته لخطر محقق.

فقد هاجر المسلمون سرًا، وهم يتوقعون الخطر، فما بالك بمن جلس فى مكة وحده بعد هجرة الرسول متحديًا قريشًا ليلة الهجرة؟ ثم ارتضاه الرسول زوجًا لابنته فاطمة ثم شجاعته النادرة فى القتال التى جعلته حديث الناس، ثم تنويه الرسول صلى الله عليه وسلم بذكره فى كثير من المواقف مثل ما كان فى فتح خيبر.

جاء فى سيرة ابن هشام:

"بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق، رضى الله عنه، برايته، وكانت بيضاء، فيما قال ابن هشام. إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يك

---

(١) شيعة الرجل أتباعه وانصاره إلا أنها عند الإطلاق تنصرف إلى شيعة على رضى الله عنه.
(٢) المواقف جـ٨ ص ٣٨٤.

فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب. فقاتل، فرجع ولم يك فتح، وقد جهد.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح علي يديه، ليس بفرار.

قال: يقول سلمة فدعا رسول الله عليا رضوان الله عليه، وهو أرمد، فتفل فى عينه، ثم قال: خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك.

قال: يقول سلمة: فخرج والله بها يأنح، يهرول هرولة، وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودى من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا على بن أبى طالب. قال اليهودى: علوتم، وما أنزل على موسى، أو كما قال.قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه.

قال ابن إسحاق: حدثنى عبد الله بن الحسن، عن بعض أهله، عن أبى رافع، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

خرجنا مع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول على عليه السلام بابًا كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه[1].

كل هذا وغيره كثير جعل قلوبا تتعلق به.

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان هناك من يرى أن عليًا أولى بالخلافة كالعباس والزبير وكل من يعتقد فى فضل على.

ولكن البيعة تمت لأبى بكر وتأخر على مدة ثم بايع هو أيضًا ثم كان عمر وعثمان رضى الله عنهم جميعًا.

---

(١) سرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٣٤ ويأنح أى به نفس شديد من الأعياء فى العدو.
قال السهيلى: هو من الأنيح وهو علو النفس.والرضم الحجارة المجتمعة (هامش ابن هشام)

وفى عهد عثمان رأينا أتباع على يظهرون بشكل أكثر وضوحًا فقيل شيعى لمن شايع عليا وعثمانى لمن قدم عثمان رضى الله عنهما.

وبعد مقتل عثمان ونشوب الحرب الأهلية، قاتل شيعة على معه حتى استشهد كرم الله وجهه على يد عبد الرحمن بن ملجم، ولكن الشيعة لم تمت بل بقيت، وكل الانقسامات التى حصلت فى صفوف الأمة كثيرًا ما تزول بمرور الأيام فلم نعد نسمع كثيرًا بالمعتزلة والأشعرية إلا فى فصول الدراسة.

والخوارج أنفسهم لم يعد لهم إلا وجود ضعيف فى بعض البلاد الإسلامية كالأباضيه وهو وجود ليس له أثر كبير.

أما بالنسبة للشيعة فإن الأمر يختلف تمامًا إذ تكاد الأمة حتى الآن تنقسم إلى قسمين رئيسيين: سنة وشيعة.

ولا ينتظر لهذا الوضع أن يزول قريبًا، ولكن الأمل أن تعم فكرة التسامح بين الفريقين، فلا تكون قطيعة، بل حب وأخاء برغم احتفاظ كل منهم بوجهة نظره.

وهذا أمل نرجو أن يتحقق وإن كان يقف فى طريق هذا الأمل المتعصبون الذين يعتقدون أن تعصبهم إنما هو من أجل الدين. ويوم أن يهئ الله للأمة المخلصين تضيق هوة الخلاف.

ولكل فرقة نقطة ينطلقون منها والشيعة ينطلقون من نقطة الإمامة.

إنهم يعتقدون أن حق على وذريته فى الخلافة يجب ألا ينازع فيه، إنه حق شرعى، وليس لأحد أن يتنازل عنه.

فإذا اختارت مجموعة من المسلمين واحدًا غير على أو واحدا من ذريته من بعده فإن الاختيار يكون باطلاً لأن هذا حق شرعى لعلى وذريته ومن تولى الحكم من غيرهم فهو مغتصب له.

فالنبى صلى الله عليه وسلم قد نص على على بالوصف - كما تقول الزيدية أو بالشخص - كما تقول الإمامية.

فرق الشيعة

عند بيان عدد الفرق قلنا الشيعة كواحدة من الفرق الإسلامية كالخوارج والمعتزلة.

ولكن الحقيقة أن الشيعة تنقسم فى داخلها إلى عدة فرق فهم[١] اثنتان وعشرون فرقة يكفر بعضهم بعضًا أصولهم ثلاث فرق.

١ ـ غلاة

٢ ـ وزيدية

٣ ـ وإمامية

أما الغلاة فثمانية عشرة

ونحن هنا لا نريد تعداد الفرق واحدة واحدة، ولكن محاولة إظهار الآراء والعقائد التى تقول بها الفرق الغالية فنجد السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الذى كان يقول لعلى أنت الإله حقًا فنفاه على إلى المدائن.

وسنجد فكرة تأليه على والأئمة، سنجد هذه الفكرة يكون لها أثرها بعد ذلك حيث سنجد كثيرًا من أصحاب الفرق الشيعية يقولون بتأليه الأئمة بل وبتأليه أنفسهم كما سيأتى فى هذا البحث قريبًا.

وقال ابن سبأ لم يمت على ولم يقتل، وإنما قتل ابن ملجم شيطانًا تصور بصورة على[٢].

ويزعم الشيعة أن عليا يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورًا[٣].

---

(١) كما يقول صاحب المواقف وهو ليس اجماعًا من مؤرخى الفرق فعند مراجعة كتب الفرق نجد خلافًا كبيرًا فى عدد الفرق وآرائهم.

(٢) المواقف بشرح السيد ص ٣٨٥ جـ٨.

(٣) مقالات الاسلاميين ص ٨٦ جـ١.

وابن سبأ حين يقول بأن عليًا لم يقتل، لا يتنازل عن رأيه، بل يصمم عليه، ويقول لمن قال له إن عليا قد قتل:

"إن جئتمونا بدماغه في صرة، لم نصدق بموته، ولا يموت حتى ينزل من السماء، ويملك الأرض بحذافيرها.

وهذه الطائفة تزعم أن المهدى المنتظر إنما هو على دون غيره[١].

ويرى ابن سبأ أن عليا فى السحاب، والرعد صوته والبرق سوطه....

وهؤلاء يقولون عند سماع الرعد: عليك السلام يا أمير المؤمنين[٢].

هذه بعض الآراء التى دخلت البيئة الإسلامية على يد عبد الله بن سبأ وسيكون لها تأثير فيما بعد فيمن سيأتى من الفرق الغالية.

ولكن الذى نحب أن نقوله ـ كما قلنا مرارًا ـ إن هناك أمرين:

الأول ـ وهو الأهم ـ أن هذه الآراء كانت موجودة فى البيئة الإسلامية.

الثانى: أن هذه الآراء قال بها فلان.

والأمر الثانى كثيرًا ما يكون موضع شك، فقد تنسب آراء لإنسان لم يقلها، أو لم تخطر على باله.

وقد تدس كتب على إنسان، وتنسب إليه، وهو منها بريء كل البراءة بل وربما تنسب آراء إلى شخص ما، وهذا الشخص لا وجود له، بل هو شخصية وهمية اخترعها الخيال اختراعًا.

ومن هذه الشخصيات التى قيل فيها هذا عبد الله بن سبأ فالسبئية وجدت فى البيئة الإسلامية بلا شك ولكن الشك إنما هو فى شخصية عبد الله بن سبأ.

وفى السبئية بدأت العقائد القديمة تظهر فى شخصية على علي رضى الله عنه.

فكما أن عيسى لم يصلب بل رفع إلى السماء كذلك على لم يقتل ـ كما يقولون ـ بل رفع إلى السماء.

وعلى ليس إنسانًا فقط بل هو إله أو روح الإله حلت فيه.

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٤٣.

(٢) المواقف ص ٣٨٥ جـ١.

وهذه الآراء نجدها حلقة بين الماضى والمستقبل. فهى مأخوذة عن الديانات السابقة وسيكون لها أثرها فى المذاهب التى ستأتى بعد ذلك.

وإذا كان التناسخ عقيدة هندية ـ كما سبق ـ فإننا نجده يظهر فى البيئة الإسلامية على يد فرق شيعية مثل "الكاملية" حيث ذهب "أبو كامل" إلى القول بالتناسخ فى الأرواح عند الموت، وأن الإمامة روح يتناسخ أى ينتقل من شخص إلى آخر، وقد تصير فى شخص نبوة بعد ما كانت فى شخص آخر إمامة[١] ويذهب إلى كفر على والصحابة رضى الله عنهم أما الصحابة فيكفرون بترك بيعة على، وأما على فيكفر بترك طلب الحق.

وأما التجسيم والحلول والنبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم فإننا نجدها فى البيانية[٢].

فقد ادعى "بيان" أن الله على صورة إنسان ويهلك كله إلا وجهه، وروح الله حلت فى على، ثم فى ابنه محمد بن الحنفية ثم فى ابنه هاشم ثم فى بيان[٣].

وينسب "بيان" لنفسه قوة فوق قوة البشر فهو ـ كما يدعى ـ يدعو "الزهرة" فتجيبه، وأنه يفعل ذلك بالاسم الأعظم[٤] ثم ادعى النبوة، وأنه نسخ جزءًا من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

وهنا نجد فكرة حلول روح الله فى إنسان تظهر على يد أمثال "بيان" وهذه فكرة يقول بها المسيحيون[٥].

ويستشهد "بيان" على رأيه ـ فى حلول قوة إلهية فى على ـ بأنه "كان يعلم الغيب، ويخبر عن الملاحم، وصح خبر ما أخبر به وأنه كان يحارب الكفار بعلمه الغيبى، وله النصر، والظفر.

---

(١) نفسه ص ٣٨٥

(٢) نسبة إلى بيان بن سمعان التميمى النهدى اليمنى (المواقف)

(٣) المواقف ص ٣٨٥.

(٤) مقالات الاسلاميين ص ٦٧ جـ١

(٥) كان اتباع الكنيسة اليعقوبية يرون أن اللاهوتية والناسوتية تؤلفان فى المسيح طبيعة واحدة، على حين كان الملكانيون يميزون بين طبيعتين: الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية (تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٢٠) ومن هنا نجد أن وجود الإلهية فى إنسان فكرة مسيحية.

ويذكر قصة خلع على لباب حصن خيبر، ويورد حديثًا لعلى يقول فيه: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية، ولا بحركة غذائية، ولكن بقوة ملكوتية، بنور ربها مضيئة[١].

ويفسر بيان بن سمعان القوة الملكوتية فى نفس على كالمصباح فى المشكاة والنور الإلهى كالنور فى المصباح، وبهذا يفسر تفسيرًا غنوصيًا فكرة نور المشكاة القرآنية المشهورة.

ويمضى فى التفسير مؤيدًا للتجسيد.

فعلى الذى حل فيه جزء إلهى، يظهر فى بعض الأزمان، وهو الذى يأتى فى ظلل الغمام، والرعد صوته، والبرق تبسمه.

ويؤيد قوله بالآية القرآنية:

"هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظل من الغمام".

ثم ادعى "بيان" الحلول، أو بمعنى أدق ادعى هذا اتباعه من بعده فالبيانية زعمت أن روح الله دارت فى الأنبياء والأئمة حتى انتهت إلى على ثم دارت إلى محمد بن الحنفية ثم صارت إلى ابنه هاشم، ثم حلت بعده فى بيان ابن سمعان[٢].

ونجد عند المغيرية[٣] التجسيم والتشبيه، واتجاه إلى إحياء القول بالنور والظلمة.

هذه الفكرة نجد أصولها عند المغيرة الذى يرى أن الله جسم على صورة إنسان، بل رجل من نور، على رأسه تاج، من نور، وقلبه منبع الحكمة، ولما أراد أن يخلق

---

(١) من كتاب نشأة الفكر الفلسفى د. النشار ص ٨٨ جـ ٢

(٢) يرجع إلى الفرق بين الفرق ص٢٥٥، ومقالات الإسلاميين ونشأه الفكر الفلسفى للنشار ص٨٨، ٨٩.

(٣) أصحاب المغيرة بن سعيد يقول عنه صاحب النجوم الزاهرة فى أحداث سنة ١١٩هـ: وفيها خرج المغيرة بن سعيد بالكوفة وكان ساحرًا متشيعًا، فحكى عنه الأعمش أنه كان يقول: لو أراد على بن أبى طالب أن يحى عادا وثمودًا وقرونًا بين ذلك كثيرًا لفعل. وبلغ خالد بن عبد الله القسرى خبره فأرسل إليه فجئ به وأمر خالد بالنار والنفط، وأحرقه ومن كان معه.
وفى هامش النجوم الزاهره عن ابن الأثير والطبرى فى حوادث سنة ١١٩ بدل لو أراد على لو أردت أن أحى.. إلخ أى أنه كان ينسب إلى نفسه القدرة على إحياء الميت وهناك اختلاف فى الاسم فالنجوم الزاهرة تقول المغيره بن سعيد فقط وكذا الأشعرى فى المقالات وكتب الفرق تختلف فهو العجلى أو البجلى أو البجيلى.

الخالق تكلم بالاسم الأعظم، فطار فوقع فوق رأسه التاج[١] وذلك قوله تعالى"سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى"

ثم إنه كتب على كفه أعمال العباد، فغضب من المعاصى.

فعرق فحصل من عرقه بحران أحدهما ملح مظلم، والآخر حلو نير، ثم إطلع فى البحر النير، فأبصر فيه ظلمة، فانتزع بعضًا من ظله، فخلق منه الشمس والقمر وأفنى الباقى من الظل نفيًا للشريك، وقال لا ينبغى أن يكون معى إله آخر ثم خلق الخلق من البحرين، فالكفار من المظلم، والمؤمنون من النير[٢] وخلق ظلال الناس فكان أول من خلق محمدًا.

قال وذلك قوله قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين[٣]. سورة الزخرف آية ٨١.

ثم أرسل محمدًا والناس فى ضلالة، وعرض الأمانة وهى منع على عن الإمامة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان وهو أبو بكر حملها بأمر عمر، حين ضمن أن يعينه على ذلك بشرط أن يجعل أبو بكر الخلافة بعده له وقوله تعالى: كمثل الشيطان[٤] الآية نزلت فى حق أبى بكر وعمر. فبالنسبة للخلافة نجد عندهم الطعن علنا فى خلافة أبى بكر وعمر.

وقولهم فى خلافة أبى بكر وعمر ردده بعض المستشرقين بعد ذلك.

حيث يرى لامنس ومن بعده فيليب حتى: أن خلافة أبى بكر كانت نتيجة لخطة سابقة دبر أمرها بينه وبين عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح.

تلك الحكومة الثلاثية التى هيمنت على مصائر الإسلام ـ كما يقول حتى ـ وهو لما يزال بعد فى مهده.

وهؤلاء يقولون: الإمام المنتظر هو زكريا بن محمد بن على بن الحسين بن على.وهو حى مقيم فى جبل حاجر إلى أن يؤمر بالخروج. وقيل المغيرة فإنه لما قتل

---

(١) هذه عبارة الأشعرى وفى المواقف فوقع تاجًا على رأسه.

(٢) المواقف ص ٣٨٥ وتبعًا لمذهب المؤمنون الشيعة حسب رأيه والكفار هم أعداء الشيعة يراجع ص ٩٥ نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د. النشار.

(٣) مقالات الإسلاميين ص ٧٣ جـ١.

(٤) فى مقالات الإسلاميين والشيطان عنده عمر.

اختلف أصحابه به فقال بعضهم بانتظاره، وقال آخرون بانتظار زكريا كما كان هو قائلاً به[١].

ونجد التناسخ عند الجناحية فالأرواح تتناسخ وكان روح الله فى آدم ثم فى شيث، ثم الأنبياء، والأئمة، حتى انتهت إلى على وأولاده الثلاثة، ثم إلى عبد الله هذا[٢].

هنا نجد فكرة خطيرة سيكون لها أثرها فيما بعد.

وسنراها عند الباطنية كما سنراها منسوبة إلى ابن عربى حين ذهب إلى أن آدم ونوحًا وجميع الأنبياء إنما هم روح واحدة وإن كانت تظهر فى مظاهر مختلفة ثم ستكون فكرة الإنسان الكامل عند ابن عربى كامتداد لهذه الآراء.

وبالتتبع لمذاهب الشيعة نجد عندهم كل المذاهب والأديان التى جاء الإسلام لمحاربتها، ولو أنهم اعتنقوا هذه الأديان بدون انتساب للإسلام لهان الأمر. فهم أعداء، والمعاملة مع الأعداء لها طرقها التى بينها الإسلام. ولكن هؤلاء أرادوا أن يبينوا أن عملهم هو الشرع والتمسوا له الأدلة - وقد تقدم بعض هذا - من الشرع فنجد عندهم التأويل.

والتأويل هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، إذا كان المحتمل الذى يراه موافقًا بالكتاب والسنة.

مثل قوله تعالى:

"يخرج الحى من الميت"[٣].

---

(١) المواقف ص ٣٨٦.

(٢) نفس المصدر وعبد الله هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذى الجناحين وذو الجناحين يطلق على جعفر بن أبى طالب جد عبد الله بن معاوية المذكور.
قال ابن هشام وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه (أى فى غزوة مؤتة بعد استشهاد زيد بن حارثة) فقطعت، فأخذه بشماله، فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء، ومن هنا لقب جعفر بن أبى طالب بذى الجناحين.

(٣) الأنعام الآية ٩٥.

إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرًا.

وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلاً"[١].

وهذا التأويل ليس بعيدًا عن الدين بل هو نص القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[٢]

فقد بين الله سبحانه أن المؤمن المهتدى بمنزلة من كان ميتًا فأحياه وأعطاه نورًا يهتدى به فى مصالحة[٣].

هذا هو التأويل الذى يتفق مع الشرع.

أما فى المذاهب الشيعية الغالية فإننا نجد تأويلاً ليس بينه وبين الشرع صلة.

وقد تقدم بعض تأويلاتهم والآن إلى بعض آخر منها: فالمنصورية[٤] يزعمون أن أبا منصور عرج إلى السماء، ومسح الله رأسه بيده وقال يانبى اذهب فبلغ عنى ثم أنزله إلى الأرض، وهو الكسف المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[٥]

وكان قبل ادعائه الإمامة لنفسه يقول الكسف على بن أبى طالب..

وقالوا الرسل لا تنقطع أبدًا، والجنة رجل أمرنا بموالاته وهو الإمام. والنار بالضد أى رجل أمرنا ببغضه، وهو ضده أى ضد الإمام وخصمه كأبى بكر وعمر.

وكذا الفرائض والمحرمات.

---

(١) التعريفات للسيد الشريف.

(٢) الأنعام آية ١٢٢.

(٣) تفسير الجمل.

(٤) نسبة إلى أبى منصور العجلى رجل من عبد القيس، كان يسكن الكوفة، وله فيها دار. وكان أميًا، لا يقرأ نشأ بالبادية، فلما مات أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ادعى أبو منصور أن أبا جعفر فوض إليه أمره، وجعله وصيه من بعده، ثم تجاوز ذلك فادعى أنه نبى ورسول وأن جبريل يأتيه بالوحى من عند الله" هامش مقالات الإسلاميين.

(٥) الطور آية ٤٤ أى "وإن يروا قطعة من السماء ساقطًا يقولوا من فرط عنادهم وطغيانهم هذا سحاب تراكم بعضه على بعض" تفسير البيضاوى.

فإن الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم.

والمحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم.

ومقصودهم أن من ظفر برجل منهم فقد ارتفع عنه التكليف لوصوله إلى الجنة[١].

هذا لون من التأويل نجده لم يبق للغة دلالة على مقصود.

فلو اتبعنا مذهبهم لكان لكل إنسان أن يحمل أى لفظ على أى معنى دون ضابط.

وبعد ذلك نجد استباحة المحرمات وعدم الوقوف عند حدود المشرع.

فنجد الخطابية[٢] "يستحلون شهادة الزور، لموافقيهم على مخالفيهم...

واستباحوا المحرمات، وترك الفرائض[٣] فاستحلوا الخمر والزنا...

ودانوا بترك الصلاة[٤].

وإذا كانت استباحة المحرمات شائعة فى الفرق الشيعية الغالية فإننا نجد عقيدة أخرى تكاد تجمعهم وهى حلول اللاهوت فى الناسوت أو إظهار الأئمة على أنهم آلهة يعبدون.

فنجد الخطابية يعبدون أبا الخطاب ويزعمون أنه إله ويزعمون أن جعفر بن محمد إلههم أيضًا[٥].

يقول أبو الحسن الأشعرى "وقد قال فى عصرنا هذا قائلون بالهية سلمان الفارسى[٦].

---

(١) المواقف ص ٣٨٦ جـ ٨.

(٢) نسبة إلى أبى الخطاب الأسدى.

وأبو الحسن الأشعرى يبين أن الخطابية خمس فرق كلهم يزعمون أن الأئمة كلهم أنبياء محدثون، ورسل الله وحججه على خلقه، لا يزال منهم رسولان واحد ناطق والآخر صامت. فالناطق محمد، والصامت على ابن أبى طالب. فهم فى الأرض اليوم طاعنهم مفترضة على جميع الخلق يعلمون ما كان وما هو كائن.

وزعموا أن أبا الخطاب نبى وأن أولئك الرسل فرضوا عليهم طاعة أبى الخطاب.

والفرقة الثانية من الخطابية يزعمون أن الأمام بعد أبى الخطاب رجل يقال له معمر. وعبدوه والفرقة الثالثة من الخطابية "البزيغية" أصحاب بزيغ بن موسى. والفرقة الرابعة من الخطابية يقال لهم العميرية أصحاب عمير بن بيان العجلى. والفرقة الخامسة من الخطابية. المفضلية لأن رئيسهم كان صيرفيًا يقال له المفضل:

(٣) المواقف ص ٣٨٦ جـ ٨.

(٤) مقالات الإسلاميين ص ٧٨ جـ١.

(٥) مقالات الإسلامين ص ٧٧ جـ١.

(٦) نفسه ص ٨٠ جـ ١

ويقول عن أحد أصناف الغالية: أنهم "يزعمون أن روح القدس هو الله عز وجل، كانت فى النبى صلى الله عليه وسلم، ثم فى على ثم فى الحسن، ثم فى الحسين، ثم فى على بن الحسين ثم فى محمد بن على، ثم فى جعفر بن محمد بن على، ثم فى موسى بن جعفر، ثم فى على بن موسى بن جعفر، ثم فى محمد بن على بن موسى، ثم فى على بن محمد بن على بن موسى، ثم فى الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى ثم فى محمد بن الحسن بن على بن محمد بن على.

وهؤلاء آلهة عندهم كل واحد منهم إله على التناسخ والإله عندهم يدخل فى الهياكل[١].

وأصحاب الشريعى يزعمون: أن الله حل فى خمسة أشخاص فى النبى وفى على، وفى الحسن وفى الحسين، وفى فاطمة فهؤلاء آلهة عندهم..

وقالوا لهذه الأشخاص الخمسة التى حل فيها الإله خمسة أضداد.

فالأضداد: أبو بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية، وعمرو بن العاص[٢].

وهكذا نجد فكرة تأليه الأشخاص تسيطر على فكرهم وبذلك نجد تأثير البيئات والثقافات الأجنبية.

وفى ختام الفرق الغالية نأتى إلى الإسماعيلية حيث كان لها شأن بالنسبة لغيرها من الفرق، وحيث لها عدة ألقاب تطلق عليها ولهم طرق فى الدعوة إلى مذهبهم[٣].

فقد "لقبوا بسبعة ألقاب:

بالباطنية لقولهم بباطن الكتاب دون ظاهره، فإنهم قالوا للقرآن ظاهر وباطن والمراد م منه باطنه، وظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، والمتمسك بظاهره معذب بالمشقة فى الاكتساب وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره.

---

(١) مقالات الإسلامين ص ٨٢ ـ ٨٣ جـ١

(٢) نفسه ص ٨٣ ـ ٨٥.

(٣) يراجع مع هذا ص ١١٦ ـ ١١٧ من هذا البحث وهو ما رواه الأمام الغزالى عن طرقهم فى الدعوة إلى مذهبهم.

وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى: "**فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب**"[١].

وهذا القول أخذوه من المنصوريه والجناحيه.

ولقبوا "بالقرامطة" لأن أولهم الذى دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له "حمدان قرمط" وهى إحدى قرى واسط.

و"بالخرمية" لإباحتهم المحرمات والمحارم.

وبالسبعية، لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع أى الرسل سبعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ومحمد المهدى سابع النطقاء.

وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته. ولابد فى كل عصر من سبعة بهم يقتدى، وبهم يهتدى فى الدين وهم متفاوتون فى الرتب: إمام يؤدى عن الله، وهو غاية الأدلة إلى دين الله، وحجة يؤدى عن الإمام ويحمل علمه ويحتج به له، وذو مصة يمص العلم من الحجة أى يأخذه منه. فهذه ثلاثة.

وأبواب وهم الدعاة فأكبر، أى داع أكبر هو رابعهم، (يرفع درجات المؤمنين، وداع مأذون، يأخذ العهود على الطالبين من أهل الظاهر فيدخلهم فى ذمة الإمام ويفتح لهم باب العلم والمعرفة، وهو خامسهم.

ومكلب قد ارتفعت درجته فى الدين ولكن لم يؤذن له فى الدعوة بل فى الاحتجاج على الناس فهو يحتج ويرغب إلى الداعى ككلب الصائد، حتى إذا احتج على أحد من أهل الظاهر، وكسر عليه مذهبه، بحيث رغب عنه، وطلب الحق، أداة المكلب إلى الداعى المأذون، ليأخذ عليه العهود.

قال الآمدى: وإنما سموا مثل هذا مكلبًا. لأن مثله مثل الجارح، يحبس الصيد على كلب الصائد، على ما قال تعالى "**وما علمتم من الجوارح مكلبين**"[٢] وهو سادسهم.

ومؤمن يتبع الداعى، وهو الذى أخذ عليه العهد، وآمن، وأيقن بالعهد ودخل فى ذمة الإمام وحزبه وهو سابعهم.

---

(١) سورة الحديد الآية ١٣.

(٢) المائدة الآية (٤).

قالوا ذلك الذى ذكرناه كالسموات والأرض والبحار وأيام الأسبوع والكواكب السيارة، وهى المدبرات أمرًا، كل منهما سبعة، كما هو المشهور.

ولقبوا بالبابكية إذ اتبع طائفة منهم بابك الخرمى فى الخروج بآذربيجان.

وبالمحمرة للبسهم الحمرة فى أيام بابك أو تسميتهم المخالفين لهم من المسلمين حميرًا. وبالإسماعيلية لإثياتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أبنائه. وقيل لا نتساب زعيمهم إلى محمد بن إسماعيل.

وأصل دعوتهم على إبطال الشرائع، لأن الغيارية وهم طائفة من المجوس راموا عند شوكة الإسلام تأويل الشرائع على وجوه تعود إلى قواعد أسلافهم.

وذلك أنهم اجتمعوا فتذكروا ما كان عليه أسلافهم من الملك، وقالوا لا سبيل لنا إلى دفع المسلمين بالسيف لغلبتهم واستيلائهم على الممالك لكنا نحتال بتأويل شرائعهم إلى ما يعود إلى قواعدنا ونستدرج به الضعفاء منهم، فإن ذلك يوجب اختلافهم، واضطراب كلمتهم ورأسهم فى ذلك "حمدان قرمط" وقيل "عبد الله بن ميمون القداح".

ولهم فى الدعوة واستدراج الطغام مراتب:

الذوق، وهو: تفرس حال المدعو، هل هو قابل للدعوة، أم لا، ولذلك منعوا إلقاء البذر فى السبخة، أى دعوة من ليس قابلاً لها. ومنعوا التكلم فى بيت فيه سراج، أى فى موضع فيه فقيه أو متكلم.

ثم التأنيس، باستمالة كل أحد من المدعوين بما يميل إليه بهواه وطبعه من زهد وخلاعة، فإن كان يميل إلى الزهد زينه فى عينه، وقبح نقيضه وإن كان يميل إلى الخلاعة زينها، وقبح نقيضها حتى يحصل له الأنس به.

ثم التشكيك فى أركان الشريعة بمقطعات السور بأن يقول ما معنى الحروف المقطعة فى أوائل السور وقضاء صوم الحائض دون قضاء صلاتها أى لم يجب أحدهما دون الآخر؟ ووجوب الغسل من المنى دون البول وعدد الركعات، أى لم كان بعضها أربعًا وبعضها ثلاثًا وبعضها اثنتين؟ إلى غير ذلك من الأمور التعبدية.

وإنما يشككون فى هذه الأشياء ويطوون الجواب عنها ليتعلق قلبهم بمراجعتهم فيها.

ثم الربط وهو أمران:

الأول: أخذ الميثاق منه بأن يقولوا قد جرت سنة الله بأخذ المواثيق والعهود ويستدلوا على ذلك بقوله تعالى: "**وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم**"[١] ثم يأخذوا من كل أحد ميثاقه بحسب اعتقاده ألا يفشى لهم سرًا.

والثانى: حوالته على الإمام فى حل ما أشكل عليه من الأمور التى ألقاها إليه فإنه العالم بها ولا يقدر عليها أحد حتى يترقى من درجته وينتهى إلى الإمام.

ثم التدليس، وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا لهم حتى يزداد ميله إلى ما دعاه إليه.

ثم التأسيس، وهو تمهيد مقدمات يقبلها ويسلمها المدعو، وتكون سائقة له إلى ما يدعوه إليه من الباطل.

ثم الخلع وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية:

ثم السلخ عن الاعتقادات الدينية.

فإذا ما آل حال المدعو إلى ذلك يأخذون فى الإباحة والحث على استعجال اللذات وتأويل الشرائع كقولهم: الوضوء: عبارة عن موالاة الإمام. والتيمم، هو: الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذى هو الحجة والصلاة عبارة عن الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى: "**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**"[٢] والاحتلام عبارة عن إفشاء سر من أسرارهم إلى من ليس من أهله، بغير قصد منه، والغسل: تجديد العهد. والزكاة: تزكيه النفس بمعرفة ماهم عليه من الدين. والكعبة: النبى. والباب على. والصفا: هو النبى والمروة: على. والميقات: الإيناس. والتلبية: إجابة الدعوة. والطواف بالبيت سبعًا: موالاة الأئمة السبعة. والجنة: راحة الأبدان عن التكاليف. والنار: مشقتها بمزاولة التكاليف. إلى غير ذلك من خرافاتهم.

---

(١) الأحزاب الآية (٧).

(٢) العنكبوت الآية (٤٥).

ومن مذهبهم أن الله لا موجود ولا معدوم ولا عالم، ولا جاهل، ولا قادر، ولا عاجز، وكذلك فى جميع الصفات، وذلك لأن الإثبات الحقيقى يقتضى المشاركة بينه وبين الموجودات، وهو تشبيه والنفى المطلق يقتضى مشاركته للمعدومات، وهو تعطيل، بل هو واهب هذه الصفات ورب المتضادات.

وربما خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة فقالوا: أنه تعالى أبدع بالأمر العقل التام، وبتوسطه أبدع النفس التى ليست تامة، فاشتاقت النفس إلى العقل التام مستفيضه منه، فاحتاجت إلى الحركة من النقصان إلى الكمال. ولن تتم الحركة إلا بآلتها فحدثت الأجرام الفلكية، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس، فحدثت بتوسطه الطبائع البسيطة العنصرية وبتوسط البسائط حدثت المركبات من المعادن والنباتات وأنواع الحيوانات.

وأفضلها الإنسان، لاستعداده لفيض الأنوار القدسية عليه واتصاله بالعالم العلوى، وحيث كان العالم العلوى مشتملاً على عقل كامل كلى ونفس ناقصة كلية تكون مصدرًا للكائنات وجب أن يكون فى العالم السفلى عقل كامل يكون وسيلة إلى النجاة وهو الرسول الناطق ونفس ناقصة تكون نسبتها إلى الناطق فى تعريف طرق النجاة نسبة النفس الأولى إلى العقل الأول فيما يرجع إلى إيجاد الكائنات وهى الإمام الذى هو وصى الناطق.

وكما أن تحرك الأفلاك بتحريك العقل، والنفس، كذلك تحرك النفس إلى النجاة بتحريك الناطق والوصى، وعلى هذا فى كل عصر وزمان.

قال الآمدى هذا ما كان عليه قدماؤهم.

وحين ظهر "الحسن بن محمد الصباح" جدد الدعوة على أنه الحجة الذى يؤدى عن الإمام الذى لا يجوز خلو الزمان عنه.

وحاصل كلامه ما تقدم فى الاحتياج إلى المعلم، ثم إنه منع العوام عن الخوض فى العلوم، والخواص عن النظر فى الكتب المتقدمة، كيلا يطلع على فضائحهم.

ثم إنهم تفلسفوا ولم يزالوا مستهزئين بالنواميس الدينية والأمور الشرعية وتحصنوا بالحصون وكثرت شوكتهم وخافت ملوك السوء منهم، فاظهروا إسقاط

التكاليف وإباحة المحرمات وصاروا كالحيوانات العجماوات بلا ضابط دينى ولا وازع شرعى نعوذ بالله من الشيطان وأتباعه.

هذا هو تصوير صاحب المواقف لمذهبهم[١].

وهنا نسأل هل وجدنا دينا؟

الواقع أننا وجدنا خليطًا عجيبًا من فلسفات وأديان مختلفة.

فلسفة فيها من كل دين إلا دين الإسلام.

(١) المواقف بشرح السيد الشريف حـ٣ ص٢٨٨ ـ ٢٩٠ طبعة استانبول.

الزيدية

هم المنسوبون إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب.

"وكان زيد بن على بويع له بالكوفة فى أيام هشام بن عبد الملك وكان أمير الكوفة يوسف بن عمر التقفى.

وكان زيد بن على يفضل على بن أبى طالب على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويتولى أبا بكر وعمر، ويرى الخروج على أئمة الجور.

فلما ظهر فى الكوفة فى أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطعن على أبى بكر وعمر، فأنكر ذلك على من سمعه منه فتفرق عنه الذين بايعوه فقال لهم رفضتمونى، فيقال إنهم سموا الرافضة لقول زيد لهم رفضتمونى، وبقى فى شرذمة، فقاتل يوسف بن عمر، فقتل ودفن ليلاً، وكان معه نصر بن خزيمة العبسى، ثم إنه ظهر على قبره فنيش وصلب عريانًا"[1].

هذه هى عقيدة زيد.

إنه يفضل عليًا، ولكنه مع ذلك يحترم أبا بكر وعمر.

بل ويلتمس العذر لتولى أبى بكر الخلافة دون على، وذلك لأن "عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريبًا، وسيف أمير المؤمنين على عليه السلام لم يجف من دماء المشركين، من قريش بعد، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر، كما هى.

فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد. وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد، والتقدم بالسن، والسبق فى الإسلام، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) مقالات الإسلاميين ص ١٣٦ ـ ١٣٧ جـ١.

وكذلك يجوز أن يكون المفضول إمامًا، والأفضل فيرجع إليه فى الأحكام.ويحكم بحكمه فى القضايا[١].

ولكن هذا الرأى لم يرض أصحابه،وقد يكون هذا من أسباب تركهم له كما تقدم[٢].

ولكن الأغلب والأقرب إلى الحق أنهم فعلوا معه ما فعلوا مع الحسين من قبل.

وتفرقت الزيدية إلى فرق وكان منها المعتدلة مثل السليمانية [٣]الذين يرون أن الإمامة شورى، وأنها تصلح فى المفضول، وإن كان الفاضل أفضل فى كل حال،ويثبتون إمامه الشيخين أبى بكر وعمر[٤].

ونجد البتريه[٥] يذهبون إلى "أن عليا أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأولاهم بالإمامة، وأن بيعة أبى بكر وعمر ليست بخطأ، لأن عليا ترك ذلك لهما، ويقفون فى عثمان وفى قتلته، ولا يقدمون عليه بإكفار.

وينكرون رجعة الأموات إلى الدنيا، ولا يرون لعلى كرم الله وجهه إمامة إلا حين بويع"[٦].

ولكن هناك من ينتسب إلى الزيدية، ولا يتصف بهذا التسامح بل نجد عنده يشبه آراء الغالية.

الجارودية[٧] من يذهب إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على على بن أبى طالب،بالوصف لا بالتسمية، فكان هو الإمام من بعده.

وأن الناس ضلوا وكفروا بتركهم الاقتداء به بعد الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم الحسن من بعد على هو الإمام.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني.

(٢) لقد بايعه خمسة عشر ألفًا من أهل الكوفة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان. ولكن لم يحضر معه المعركة سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً.

(٣) أصحاب سليمان بن جرير الزيدى

(٤) مقالات الإسلاميين صـ ١٤٣ جـ١.

(٥) أصحاب الحسن بن صالح بن حى وأصحاب "كثير النواء" وإنما سموا بترية لأن "كثيرًا" كان يلقب بالأبتر.

(٦) مقالات الإسلاميين ص ١٤٤ جـ١.

(٧) الجارودية أصحاب "أبى الجارود" كان أعمى ويوصف بأنه مبتدع ضال وأهل السنة "اعتبروه رافضيًا يضع الحديث فى مثالب الصحابة ويروى فى فضائل أهل البيت عنهم أشياء لا أصول لها. بل اعتبروه من أهل الكوفة الغلاة" نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د. النشار صـ ١٨٨ جـ٢.

ثم الحسين هو الإمام من بعد الحسن".

فنجد هنا تكفير من ترك عليا.

ومن الجارودية من يرى"أن محمد بن عبد الله بن الحسن[١] لم يمت وأنه يخرج ويغلب[٢].

وبذلك نجد أنفسنا أمام عقائد باطنية قالت بها فرقة تنسب إلى الزيدية.

كما نجد عند فرقة أخرى من الجارودية القول بأن "محمد بن القاسم صاحب "الطالقان[٣]" حى لم يمت وأنه يخرج ويغلب.

وفرقة قالت مثل ذلك فى "يحي بن عمر[٤]" صاحب الكوفة.

---

(١) اسمه فى النجوم الزاهرة محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن، ويعتبر قتله من المآس التى أصابت آل البيت، فبض المنصور على عبد الله وحبسهم سنة ١٤٤ وهم حسن وإبراهيم ابنا حسن بن الحسن، وحسن بن جعفر بن حسن بن الحسن، وسليمان وعبد الله ابنا داود ابن حسن بن الحسن، وسهيل وإسحاق ابنا إبراهيم المذكور، وعيسى بن حسن بن الحسن وأخوه على القائم. وفى حوادث سنة ١٤٥ يقول :فيها قتل الخليفة أبو جعفر المنصور محمدًا وإبراهيم ابنى عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب واحدًا بعد واحد فقتل محمد بالمدينة وبعده بمدة قتل إبراهيم. وكان إبراهيم خرج أيضًا بعد خروج أخيه محمد على المنصور بالبصرة، وانضم عليه خلائق من العلماء والفقهاء وأعيان بنى الحسن ، فلما ورد عليه الخبر بقتل أخيه محمد عظم شأنه وكاد أمره أن يتم ووقع بينه وبين جيش المنصور أمور ووقائع إلى أن قبض عليه وقتل وفيها أيضًا مات والدهما عبد الله بن الحسن فى حبس المنصور.قال الهيثم حبسهم أبو جعفرالمنصور فى سرداب (يعنى عبد الله المذكور وأقاربه من بنى الحسن) تحت الأرض لا يعرفون ليلاً ولا نهارًا ـ والسرداب عند قنطرة الكوفة وهو موضع يزار ـ ولم يكن عندهم بئر للماء ولا سقاية. فكانوا يبولون ويتغوطون فى مواضعهم، وإذا مات منهم ميت لم يدفن بل يبلى وهم ينظرون إليه فاشتد عليهم رائحة البول والغائط. فكان الورم يبدوا فى أقدامهم ثم يترقى فى قلبوبهم فيموتون.

(٢) مقالات الإسلاميين صـ ١٤٣.

(٣) محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب خرج فى أيام المعتصم بالطالقان فأخذه عبد الله بن طاهر، ووجه به إلى المعتصم بعد وقائع كانت بينه وبينه فحبس ـ فيما ذكر يسامرا عند مسرور الخادم فى محبس ضيق، ثم حول إلى موضع آخر وأجرى عليه طعام،ووكل به قوم يحفظونه فلما كان ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة (وكان ذلك فى سنة ٢١٩) هرب من الحبس ليلاً.. فلما أصبحوا أتوه بالطعام فلم يجدوه ولم يعثر له بعدها على أثر،عن هامش مقالات الإسلاميين ومرجعه الكامل لابن الأثير ١٢/٦ بولاق.

(٤) هو أبوا لحسن يحى بن عمر بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب.

وأما آراؤهم الكلامية فإننا نجدهم كالمعتزلة يرون "أن أصحاب الكبائر كلهم معذبون فى النار خالدون فيها، مخلدون أبدًا، لا يخرجون منها، ولا يغيبون عنها [١] والزيدية بأجمعها ترى السيف والعرض على أئمة الجور، وإزالة الظلم وإقامة الحق.

وهى بأجمعها لا ترى الصلاة خلف الفاجر، ولا تراها إلا خلف من ليس بفاسق[٢].

(١) مقالات الإسلاميين ص ١٤٩ جـ١

(٢) نفسه ص ١٥٠ وعندما زرت اليمن وهى تتكون من الشافعية والزيدية ـ وجدت الشافعية يصلون بإطمئنان وراء الإمام المصرى وأما الزيدية فإنهم يرفضون ذلك وما كان للعالم المصرى ـ إلا فيما ندر ـ أن يخطب الجمعة او يصلى إمامًا بالزيدية وقليلاً ما كنت ترى بعضهم يسمح للعالم المصرى بالخطبة والصلاة وكأنهم فى سماحهم مرغمين نظرًا لحالة الحرب والثورة.

الإمامية

الإمامية نسبة إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعينه فى الإيمان وهى أصل عندهم[١].

والفرق بين الإمامية والزيدية فى تعيين الإمام أن الإماميه يرون أن النصوص عينت عليا بالشخص. وأما الزيدية فإنهم يرون أن النصوص اقتضت تعيين على بالوصف لا بالشخص.

ومن أراء الإمامية التى يجمعون عليها ـ فوق ما تقدم ـ أن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء بعلى بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف. وأنها قرابة، وأنه جائز للإمام فى حال التقية أن يقول إنه ليس بإمام، وأبطلوا جميعًا الاجتهاد فى الأحكام، وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس، وزعموا أن عليا ـ رضوان الله عليه ـ كان مصيبًا فى جميع أحواله، وأنه لم يخطئ فى شيء من أمور الدين إلا الكاملية (أصحاب أبى كامل) فإنهم أكفروا الناس بترك الاقتداء به. وأكفروا عليا بترك الطلب[٢].

ومن عقائدهم أن الاثنى عشرية (وهم القطعية [٣]) يعينون اثنى عشر إماما وأن الإمام الثانى عشر هو الغائب المنتظر عندهم الذي يدعون أنه سيظهر فيملأ الأرض

---

(١) فى مقدمة ابن خلدون الباب الثالث الفصل السابع والعشرون، والشيعة متفقون على "أن الإمامة ليست من المصالح المرسلة العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبى إغفا له، ولا تفويضة إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصومًا من الكبائر والصغائر" نفس المصدر"ثم منهم من يرى أن هذه النصوص (أى التى أوردها) تدل على تعيين على وتشجيعه وكذلك تنتقل منه إلى من بعده وهؤلاء هم الإمامية" نفس المصدر.

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٨٩ جـ١.

(٣) سموا قطعية لأنهم قطعوا على موت موسى بن جعفر بن محمد بن على " وهم جمهور الشيعة يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على إمامة على بن أبى طالب واستخلفه بعده بعينه، واسمه، وأن عليا نص على إمامة ابنه الحسن بن على ، وأن الحسن بن على نص على إمامة أخيه الحسين بن على وأن الحسين بن على نص على إمامة ابنه على بن الحسين وأن على ابن الحسين نص على إمامة ابنه محمد بن على، وأن محمد بن على نص على إمامة ابنه جفعر بن محمد، وأن جعفربن محمد نص على إمامة ابنه موسى بن جعفر، وأن موسى بن جعفر نص على إمامة بانه على بن موسى، وأن على بن موسى نص علىإمامة ابنه محمد بن على بن موسى، وأن محمد بن على بن موسى نص على إمامة ابنه على بن محمد بن موسى وأن على بن محمد بن على بن موسى نص على إمامة ابنه الحسن ابن على بن محمد بن على بن موسى، وهو الذى كان "يسامرا" وأن الحسن بن على نص على إمامة ابنه محمد بن الحسن بن على. وهو الغائب المنتظر عندهم.

عدلاً بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا ومن المعروف أن الشيعة اختلفت بعد جعفر الصادق فمنهم من نقل الإمامة إلى ابنه موسى وهو الاثنا عشرية[١] وموسى عندهم هو الإمام السابع وغير الاثنى عشرية يجد من الشيعة من نقل الإمامة إلى اسماعيل بن جعفر وهم المسمون الإسماعيلية[٢].

ولنأخذ رأى الشيعة فى جعفر الصادق كمثال"فهو الإمام السادس عند الاثنى عشرية إليه الوصية، كما انتقل إليه العلم الربانى جميعه وينسب الجفر الأبيض إليه. ويحتوى الجفر الأبيض - فى رأى الشيعة - على زبور دواد وتوراة موسى، وإنجيل عيسي. وصحف إبراهيم ، وفيه أيضًا الحلال والحرام أى الفقه، ومصحف فاطمة .

فيه كل ما يحتاج إليه الناس. كما يحتوى الجفر أيضًا على اختيار الملوك المتعاقبين، وأسمائهم وأسماء آبائهم، فما من ملك يملك إلا وهو مكتوب فيه اسمه، واسم أبيه.

ونسب إلى جعفر الصادق القول[٣] "ورب الكعبة لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أنى أعلم منهما، ولأنبأتهما بما ليس فى أيديهما، لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثناه من رسول الله وراثة"[٤].

ووصف جعفر بهذه الأوصاف التى تتصل بالمعرفة أصبح من العقائد الاثنى عشرية والإسماعيلية ولم يكتف الشيعة بهذا بل أضافوا إليه أن عنصر الوجود الأول "هو نور، هو أول ما أبدع الله".

هذا النور هو صورة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم انتقل - بعد أن بعث الله الخلق فى آدم، ثم فى الاصلاب الطاهرة إلى أن ظهر أخيرًا فى محمد الرسول ثم فى أعقابه الأئمة [٥].

---

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) تقدم أن الاسماعيلية - حسب تقسيم صاحب المواقف - من الغلاة.

(٣) يجب أن ينظر بحذر إلى نسبة أمور مخالفة للشرع إلى علماء آل البيت فهؤلاء العلماء كانوا يتبرءون من نسبة هذه الأمور إليهم بل ويطردون من حضرتهم من يقول بها.

(٤) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د. النشار ص ٢٠٩ جـ ٢ ومصدره الكلينى : الكافى ص ١٥٧.

(٥) نفسه ص ٢١٠ ومصدره المسعودى.

وينسبون إلى جعفر أنه قال:

إن الله فى القديم خاطب محمدًا فقال:

وأنصب أهل بيتك للهداية وأوتيهم من مكنون علمى مالا يشكل عليهم دقيق، ولا يعيبهم خفى، وأجعلهم حجتى على بريتى، والمنبهين على قدرتى ووحدانيتى، ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية، والإخلاص بالوحدانية.

أما عقيدتهم فى الله سبحانه فإن صاحب المواقف يأتينا بها مجملة حيث يبين أن الإمامية كانت "أولاً على مذهب أئمتهم، حتى تمادى بهم الزمان، فاختلفوا، وتشعب متأخروهم إلى معتزلة: إما وعيدية أو تفصيلية، وإلى إخبارية، يعتقدون ظاهر ما ورد به الأخبار المتشابهة، وهؤلاء ينقسمون إلى مشبهة[١] يجرون المتشابهات على أن المراد بها ظواهرها، وسلفية يعتقدون أن ما أراد الله بها حق، بلا تشبيه كما عليه السلف، وإلى ملتحقة بالفرق الضالة.

هذا النصى يبين لنا أننا سنجد عند الإمامية شبها لكل عقيدة فى الفرق الكلامية.

ولكن هل الإمامية هى التى أخذت من غيرها أو غيرها أخذ عنها؟

والجواب أن ذلك يختلف باختلاف العقيدة.

فالتجسيم والتشبيه مصدرهما الشيعة ثم انتقل منهم إلى غيرهم وأما الأفكار الاعتزالية فليسوا هم مصدرها بل أخذوها عن غيرهم.

فبالنسبة للتجسيم نجده عند الهاشمية[٢].

وهشام ليس مستقرًا فى رأيه؛ فقد "ذكر عن هشام أنه قال فى ربه فى عام واحد خمسة أقاويل: زعم مرة أنه كالبلورة، وزعم مرة أنه كالسبيكة، وزعم مرة أنه غير صورة، وزعم مرة أنه ـ بشبر نفسه ـ سبعة أشبار ثم رجع عن ذلك، وقال: هو جسم لا كالأجسام[٣].

من هنا نجد اختلاف مؤرخى الفرق فى تصوير رأى هشام.

---

(١) المشبهة قوم شبهو الله بالمخلوقات، ومثلوه بالمحدثات: (التعريفات للسيد) ص ٣٩٢ جـ٨.

(٢) أصحاب هشام بن الحكم.

(٣) مقالات الإسلاميين ص ١٠٨ جـ١ ومنهم من يذهب إلى أن المراد من أنه جسم أنه موجود.

ولكنهم مجمعون ـ لا فرق بين الشيعة والسنة والمعتزلة ـ "على أن هشام بن الحكم هو أول من قال"أنه جسم" وأن مقالة التجسيم فى الإسلام تنسب إليه فهو أول من أدخلها أو ابتدعها كما نسب إليه التشبيه أيضًا[١].

فالتجسيم لم ينقل من المذاهب الأخرى إلى الشيعة، بل بدأ فى الشيعة، ثم بمرور الزمن بدأت فكرة التجسيم تخسر أنصارها لمخالفتها للعقل والشرع، ولذلك وجدنا الشيعة بعد ذلك تأخذ بالمذاهب الأخرى كالمعتزلة.

يقول ابن تيمية: "وكان متكلمو الشيعة كهشام بن الحكم، وهشام ابن سالم الجواليقى، وأمثالهم يزيدون فى إثبات الصفات على مذهب أهل السنة، فلا يقنعون بما يقوله أهل السنة والجماعة من أن القرآن غير مخلوق، وأن الله يرى فى الآخرة، وغير ذلك من مقالات أهل السنة والحديث، حتى يبتدعوا فى الغلو فى الإثبات والتجسيم، والتبعيض، والتمثيل ما هو معروف من مقالتهم التى ذكرها الناس.

ولكن فى أواخر المائة الثالثة دخل من دخل من الناس من الشيعة فى أقوال المعتزلة، كابن النوبختى، صاحب كتاب الآراء والديانات، وأمثاله، وجاء بعد هؤلاء المفيد بن النعمان وأتباعه.

ولهذا نجد المصنفين فى المقالات كالأشعرى، لا يذكرون عن أحد من الشيعة أنه وافق المعتزلة فى توحيدهم وعدلهم إلا بعض المتأخرين.

وإنما يذكرون عن بعض قدمائهم التجسيم. وإثبات القدر وغيره.

وأول من عرف عنه فى الإسلام أنه قال: إن الله جسم، هو "هشام ابن الحكم" بل إن الجاحظ يذكر فى كتابه حجج النبوة: ليس على ظهرها رافضى، إلا وهو يزعم أن ربه مثله، وأن البداوات تعرض له، وأنه لا يعلم الشيء قبل كونه إلا بعلم يخلقه لنفسه[٢]!

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام د. النشار صـ ٢٢٤ جـ٢..

(٢) منهاج السنة جـ١ ص ٤٥ ـ ٤٧ عن نشأة الفكر د. النشار صـ٢١٧ ـ ٢١٨ جـ٢

نجد بعد ذلك منهم من يرى جواز البداء[١] على الله سبحانه ويقول "إن الله تبدو له البداوات وإنه يريد أن يفعل الشيء فى وقت من الأوقات ثم لا يحدثه ؛ لما يحدث له من البداء.

وإنه إذا أمر بشريعة ، ثم نسخها فإنما ذلك لأنه بدا له فيها ، وإن ما علم أنه يكون ، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه فجائز البداء فيه ، وما أطلع عليه عباده فلا يجوز البداء فيه"[٢].

وبعد ذلك تكون لهم الآراء المتعددة فى القرآن وأعمال العباد ، وإرادة الله..إلخ.

وما من رأى قيل به إلا وتجده عندهم.

(١) البداء جواز الرأى بعد أن لم يكن (التعريفات للسيد).

(٢) مقالات الإسلاميين صـ١١٣ جـ١.

تعقيب أول

ليس من المبالغة فى شيء القول بأن الشيعة بكل فرقها تحوى كل عقائد ومذاهب العالم تقريبًا.

فما من عقيدة أودين سماوى أو غير سماوى إلا وتجد له أثرًا فى فرقة أو أكثر من فرق الشيعة.

وهناك أسباب كثيرة أدت إلى هذا.

فمن أول الأمر تفترق نظرة السنى إلى أمرائه عن نظرة الشيعى لأئمته فعند السنى يكون للحاكم مهمة محددة وهى تنفيذ أوامر الله سبحانه، ثم السهر على الرعية.

وهذا الحاكم قد يكون من هذه الأسرة أو تلك والأمة هى التى ولته هذا العمل بطريق الانتخاب أو وصية من قبله.

وأما الإمام عند الشيعة فإنه يختلف عن ذلك: إنه معين من قبل الله وعند كثير منهم ما يقوله الإمام هو وحى من الله سبحانه.

وصفات معينة هى التى بسببها كان إمامًا.

من أهم هذه الصفات: النسب.

ومن هنا وقفنا على أبواب التمييز بين الأئمة وغيرهم، ومن هذا الباب أضيف للأئمة صفات اقتربت بهم بل وصلت بهم فعلاً لا إلى مقام النبوة بل إلى مرتبة الألوهية.

فهو إما محل روح الألهة أو هو نفسه إله على تأويلات ساقوها، أو يسرى فيه نور معين ينتقل من شخص إلى آخر.

واعتقد أنه كان لابد من هذا أى القول بالتناسخ حتى ينسجم المذهب.

لأنه لا يمكن القول بأن هذا إله أو حلت فيه روح الإله أو نور معين سار فيه. ثم يقال بعد هذا إنه مات، موتا نهائيًا. بل لابد من إعطاء نظرة خاصة لهذا الجزء الإلهى.

ومن هنا كانت فكرة التناسخ تجد لها سندًا عند كثير من فرق الشيعة.

بعد ذلك تأتى نقطة السرية.

إن الأئمة لاشك قد نالهم من البلاء ما لم ينل غيرهم ؛ بدأ ذلك ـ كما يرون ـ بحرمان على بن أبى طالب من الخلافة ثم قتله كرم الله وجهه ، وبلغت المأساة ذروتها فى استشهاد الحسين رضى الله تبارك وتعالى عنه.

وتوالت المآسى عليهم بعد ذلك.

كان ذلك فى عهد الأمويين ولما جاء العباسيون كان الأمل أن يكونوا أرحم بالعلويين من بنى أمية.

ولكن العكس تمامًا هو الصحيح فقد نزل بالعلويين على يد العباسيين أنواع البلاء من القتل والسجن مما يعجز الإنسان عن تصوره ؛ فعند تتبع كتب التاريخ لا تكاد تمر سنة إلا وفيها علوى قتل أو سجن أو مثل به.

وشعر العلويون بهذا وهم يرون أنهم أصحاب حق ، ويدهش الإنسان من ذلك التصميم من جانب العلويين على المطالبة بحقهم برغم أنهم رأوا ما نزل بسلفهم. وبأنهم كانوا ـ كما اعتقد ـ يعلمون مسبقًا أن حركاتهم محكوم عليها بالفشل نظرًا للفرق الكبير بين قوتهم وقوة الدولة التى خرجوا لمحاربتها.

وقد تجمعت عوامل منها تصميمهم على المطالبة بحقهم ، ثم خداع الناس لهم حين يبايعونهم ثم يخذلونهم. ثم شراسة عدوهم حيث كان لا يقف عند حد فى التنكيل بهم.

هذه العوامل وغيرها تجمعت فجعلتهم يفكرون.

ونتيجة لهذا التفكير اتجهوا إلى السرية فى جميع أمورهم.

فلا يستطيع إنسان ليس منهم أن يعرف شيئًا عن مخططاتهم.

ويؤدى بهم الحذر إلى درجة أنهم يعتقدون أن سرهم لن يصل إلى أحد من الملائكة الموكلين بهم ، إذ يرى أحد أئمة الشيعة أن الملكين اللذين يلازمان كل امرىء كى يحصيا عليه أقواله وأفعاله ، يتركانه عندما يتلاقى شيعيان ويأخذ أحدهما فى التحدث إلى الآخر.

ولما ينبهوا الإمام جعفر الصادق صاحب هذه الدعوى إلى مناقضتها للآية القرآنية (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[١].

إذ أن هذا الرقيب هو الملك الحارس الذى يسمع ما يقوله المرء، زفر الإمام زفرة عميقة، واخضلت لحيته بالدموع، وقال ما معناه: أجل: حقًا إن الله أمر ملائكته بأن يتركوا المؤمنين وحدهم عندما يتناجون، غير أن الملائكة إذا فاتهم هذا فالله يعلم ما كان خافيًا[٢].

وانتقلوا من السرية إلى نقطة أخرى وهى " التقية" حيث يجب على الشيعى أن يخفى مذهبه وإذا كان فى بلد يحكمها خصوم الشيعة عمل معهم كواحد منهم، وبذلك ينجو من الخطر الذى يراد به من أعدائه.

وما دام قوم يتسترون و لا يجهرون بدعوتهم و لا عقيدتهم، فإن هذه العقيدة سيدخلها كثير من الباطل.

وهذا ليس خاصًا بالشيعية بل نجده أوضح ما يكون فى المسيحية.

لقد بدأت حياتها دعوى سرية واستمرت على ذلك حتى سنة ٣١٣ تقريبًا وفى كل هذه المدة ينزل بالمسيحين من البلاء ما لا يكاد يصدقه عقل.

ولما رفع عنهم هذا البلاء وجهر كل إنسان بعقيدته وجدوا أن بينهم من الخلاف مالا يقل عن الخلاف الموجود بين دين ودين.

كل هذا كان نتيجة السرية.

فإذا ما جاءت الشيعية وحاولت استعمال السرية فإنه لابد أن تصبح مأوى لكل عقيدة أراد صاحبها أن يدسها على الإسلام.

وساعد على إدخال كل هذه العقائد فى مذهب الشيعة ما يلى:

١ ـ كثرة الأديان التى كانت تحويها المنطقة.

---

(١) سورة ق الآية (١٨).

(٢) العقيدة والشريعة: حوله تسهر ص ١٨٠ ومصدره "الكافى: الكلينى ٦٦" وقد يكون جعفر قبل هذا الكلام، وقد يكون منسوبًا إليه دون أن يقوله، ولكن الذى نريده أنه عقيدة شيعية.

فهنا بلاد الزرادشتيه، والمانوية، والمزدكيه؛ وكل هذه ديانات لم تعرف التوحيد[١].

٢ ـ نشاط الحركة العلمية فى هذه المنطقة قبل الإسلام ففى هذه البلاد كانت حروب الإسكندر التى بسببها اختلطت ثقافة فارس بثقافة الروم.

ثم كانت المسيحية وما صاحبها من وجود مدارس الرها. ونصيبين وغيرهما وكذلك المذاهب المتعددة فى المسيحية من يعقوبيه ونسطورية.... إلخ.

٣ ـ كانت فى هذه المناطق جاليات يونانية من أيام الإسكندر وهى على صلة بثقافة بلادها.

ومدرسة الإسكندرية والأفلاطونية الحديثة ليست بعيدة عن التأثير فى هذه الأماكن.

٤ ـ بعد ذلك كانت تلك الحركة العلمية التى بلغت أوجها فى عهد الدولة العباسية.

وكانت حركة الترجمة، فترجمت كتب من الفارسية والهندية واليونانية والسريانية إلى العربية وهذه الكتب تحوى عقائد كان يدين بها أقوام فى يوم من الأيام.. ثم كان هناك من يعرف اللغة الفارسية والعربية ولا يقوم بترجمة كتب إلا أنه يضيف إلى أفكاره من هنا ومن هناك ثم يظهر ذلك كله فى إنتاجه.

٦ ـ قد يكون هنا سؤال: لماذا كانت الشيعة هى المأوى لكل هذه العقائد دون غيرها من الفرق والمذاهب.

والجواب لأنها أنسب لهامن غيرها فتأليه الأشخاص ما كان يجد له أنصارًا لو قلنا إن هؤلاء الأشخاص من بنى أمية مثلاً ثم هذه العقائد ما كان يمكن أن تدخل كتب علم الكلام حيث تناقش كل عقيدة علانية.

أما عندما تضاف إلى كتب طائفة تدين بالسرية فإن احتمال قبولها يصبح كثيرًا مع التأكد من عدم مناقشتها.

ومع كل هذه العوامل يمكن أن أقول إن من درس مذاهب فرق الشيعة فقد درس كل عقائد ـ العالم تقريبًا ـ منسوبة إلى الإسلام.

---

(١) اللهم إلا ما قيل عن الزرادشتيه وإن كان لم لهم.

تعقيب ثان

على من يطعن فى خلافة أبى بكر، وعمر، وعثمان رضى الله عنهم من الشيعة. لقد اهتم كثير من المفكرين بالرد على الشيعة فى هذه النقطة. ولقد كان للفقهاء والمتكلمين، قصب السبق هنا، يظهر ذلك واضحًا من وصية الإسماعيلية بمنع الكلام فى بيت فيه سراج أى فى موضع فيه فقيه أو متكلم.

ونحن نأتى هنا من آراء المتكلمين ما نعتقد أنه يمثل الاتجاه الصحيح وهو الرأى الذى نرتضيه،

لقد ناقشهم القاضى عبد الجبار فى دعواهم، مبينًا لهم أن دراسة عصر الصحابة والتابعين تفيد بوضوح أنه لم يكن هناك نص على الإمامة.

لأنه لو كان هناك نص لكان يجب أن يكون معلومًا لجميعهم، فلو كان كذلك لكانت الأمور التى جرت فى الإمامة لا تجرى على الحد الذى جرت عليه. بل يجب أن يكونوا مضطرين إلى معرفة إمامة أمير المؤمنين، كاضطرارهم إلى أن صلاة الظهر واجبه، وصوم رمضان واجب، وحج البيت واجب.

فلو كان كذلك لما صح ما قد ثبت عنهم من مواقف الإمامة والمنازعة إلى غير ذلك[1].

ثم يذكر عن أبى هاشم قوله: إن من تقدم من الإمامية إنما ادعى النص بالأخبار التى تعلقوا بها، مما طريقه طريق النظر، ويدخل فى مثله الشبهه. وحدث بعدهم قوم لم يلزمهم هذا القول بدين، وإنما كان قصدهم المغالبة، ورأوا أن تعلقهم بهذه الأخبار لا يقنع.

فادعوا أنه عليه السلام أخذ بيد أمير المؤمنين، وقال له: أنت الأمير من بعدى.

---

(١) المغنى ص ١١٩ جـ٢٠ القسم الأول.

وادعوا أن نقل ذلك عن جمع قد حصل إلى أن يبلغ النبى عليه السلام، حتى ادعوا على مخالفهم أنه يعلم صحة قولهم باضطرار.

فطرقوا بهذا لمخالفهم المعارضة بأمور لا أصل لها مثل أن يدعوا التواتر أنه عليه السلام أخذ بيد أبى بكر فقال لهم: ـ هذا إمامكم من بعدى وخرج الكلام بينهم وبين مخالفهم عن الموضوعات التى نتكلم على مثلها إلى أن ادعى تكذيب البعض من البعض.

ثم قال: الذى يدل على بطلان هذه الدعوى أن هذا الأمر لو كان صحيحًا لا يخلو القول منه عليه السلام من أين يكون كان بحضرة جمع كثير، فتواطئوا على كتمانه فسبيلهم سبيل من وصفنا حاله[1].

على أن كتمان ذلك على جماعة الأمة لا يجوز، لأنها لا تجمع على كتمان ما يجب أظهارة، كما لاتجمع على خطأ، وعلى الجمع العظيم لا يصح.

فما طريقة الاضطرار من جهة العادة كتمان ما هذه حاله. وإن كانوا لم يكتموا ولم يتواطؤا على ترك اظهاره فكيف يجوز أن يقع الخلاف بعده عليه السلام حتى يقول الأنصار منا أمير ومنكم أمير، مع معرفتهم بهذا النص الظاهر؟ [2].

ثم يضيف إلى ما تقدم "وكيف جاز أن يقول له[3] العباس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليل نسأله عن هذا الأمر، فإن كان لنا بينه، وإن كان لغيرنا أوصى بنا، مع هذا البيان المتقدم؟

وكيف ساع لأبى بكر أن يستخلف عمر؟

---

(١) هنا يتفق رأى المعتزلة والأشعرية يقول إمام الحرمين، دليلا صحة إمامة أبى بكر. فإن أباذر، وعمارا، وصهيبا، وغيرهم، من الذين كانوا لا تأخذهم فى الله لومة لائم اندرجوا تحت الطاعة على بكره أبيهم وكان على رضى الله عنه مطيعًا له سامعًا لأمره ناهضًا إلى غزوة بنى حنيفة متسريا بالجارية المغنومه من مغنمهم الإرشاد ص٤٢٨..

(٢) نفسه ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) أى لعلى كرم الله وجهه.

وكيف جرى الأمر فى بيعة أبى بكر على ما جرى عليه؟

وكيف لم يبين أمير المؤمنين أمر نفسه على زعمهم للتقيه مع أن غيره قد أظهر كراهة ما فعله أبو بكر، حتى إن طلحة قال له فى عهده إلى عمر:

وليت علينا قظا غليظا؟

وكيف رضى أمير المؤمنين أن يكون فى الشورى مع ما ترون فيه من القول حالا بعد حال؟

وكيف جاز ألا ينكر على عمر قوله إن وليت من أمر المسلمين شيئًا فلا تحمل بنى هاشم على رقاب الناس؟

وهلا قال له: أنا إمام المسلمين. وقد عرفت النص على، والإشارة إلى ، فليست لى حاجة إلى أن أولى.

فكيف لم يذكر هذا النص الظاهر، فيعده فى مناقبه حين صار الأمر إليه، وفى وقت الحاجة، مع أنه كان يعد مناقبه فى المحافل والمشاهد فى أيام معاوية وقبله؟

وكيف صح مع ذلك أن يعاقد أبا بكر وعمر وعثمان، وينتهى إلى رأيهم فى إقامة الحدود وغيرها على ما نقل.. كل ذلك يدل من حال الصحابة على بطلان هذا القول كما دلت أحوالها وأحوال الأمة على أنه عليه السلام لم يقم العباس إمامًا....

فكما أنه لا يجوز أن يكون عليه السلام ينص بالإمامة على رجل معين على رءوس الأشهاد، ويظهر ذلك عند الجمع العظيم، فلا يدعى ذلك له مدع، ولا يدعيه هو نفسه وتجرى أحواله على ما علمنا من حال أمير المؤمنين مع سائر الصحابة، فقد صار كل ذلك دليلاً على أنه عليه السلام لم يقمه إمامًا[1].

وإقامة الإمام ليست من الأمور الثانوية على مذهبهم، (أى الشيعة) بل هى "عندهم من أعظم الشرائع، ومما لا تصح الشريعة إلا معها لأن عندهم أنه بالإمام تصح سائر الشرائع من حج وصلاة، وأنه يقوم بحفظ الدين على ما يقولون، فلو جاز

(١) نفسه ص ١٢٢.

أن يكتموا أمره مع النص الذى وقع، وطريقه الاضطرار جاز أن ينص عليه السلام على صلاة وقبلة وشريعة ولا ينقل وإن كان النص فى الأصل بالاضطرار علم"[١].

ولا يجوز لهم أن يدعوا أنه كان هناك نص ولكن من تولى الخلافة وسلب الحق "كان يقصد إلى أنه يعفى على أخبار النص فلذلك ضعفت وقلت.

وذلك لأن الأمر لو كان كما قالوا لكنا نحن وهم شرعًا واحدًا، وكان يجب إذا لم يتصل بنا ألا يتصل بهم، فكيف والحال هذه أن يدعوا العلم بهذا النص[٢] ثم إن الإمام عليا نقلت له فضائل ومواقف محموده فى الحروب وغيرها فلماذا نقلت هذه وكتمت أخبار الإمامة [٣]وهكذا لا نجد سندًا لمن يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر عن إمامة على كرم الله وجهه بالنص أو بالوصف.

ويبقى بعد ذلك صحة إمامة أبى بكر، ودليلها الإجماع لأن الأمة أجمعت عليه.

وكون سعد لم يبايع لا يطعن فى الإجماع، لأنا نفهم أن سعدًا وحده لا يكون محقًا. ولابد أن يكون الحق فى أحد ما قالته الأمة، فيجب أن يكون فيما عليه سائر "الصحابة"[٤].

وهنا يأتى اعتراض وهو أنه من الثابت أن بعض الصحابة امتنع عن البيعة أول الأمر.

فكيف ادعيتم الإجماع على بيعة أبى بكر وقد تأخر عن ذلك أمير المؤمنين وخالد بن سعيد، وظهر الخلاف عن سلمان، وعن الزبير، وظهر عن أبى ذر، وحذيفة والمقداد وعمار الانحراف عن ذلك والتحقق بأمير المؤمنين"[٥].

والرد على هذا أنهم فى النهاية بايعوا.

"وسعد كما أنه امتنع عن بيعة أبى بكر لم يبايع غيره".

"هذا إن صح أنه بقى على الخلاف، لأنه لا يمتنع ألا يبايع وهو راض؛ لأنه لا معتبر بالبيعة ولا بالحضور، لأنه قد يجوز أن يكون نافرًا عن الحضور لما جرى من صده عما كان له بسبب من الإمارة.

---

(١) نفسه ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٢) نفسه ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٣) يرجع إلى نفس المصدر صـ١٢٥.
(٤) نفسه ص ٢٨٢.
(٥) نفسه صـ ٢٨٢.

وإن صح وتيقن خلافه فالأمر على ما قدمنا من أنه إما ألا يعتد بخلافه، أو يعول على صحة الإجماع بعد موته"[١].

وهناك الأدلة الكثيرة على أن عليا رضى الله عنه، وإن كان قد تأخر فى البيعة بعض الوقت فإنه صدر منه ما يدل على رضاه بهذه البيعة وأنه لم يكن مكرها على بيعته.

فهو الذى أشار على أبى بكر بحرب الرده ومعلوم أن ذلك كان فى أول خلافة أبى بكر.

ثم هو الذى أنكر على أبى سيفان قوله فى أبى بكر[٢]"أرضيتم يا بنى عبد مناف ان تلى عليكم تيم"

ثم إنه لا وجه لمن يقول إنه بايع مكرها حيث إن جميع أحواله تدل على أنه لم يكن مكرهًا حيث قد عاون وعاضد أبا بكر ومدحه ولو كان مكرها لكان "يجب أن يتكرر منه النكير حالا بعد حال، وألا يقتصر على نكير تقدم، وكان يجب ألا تظهر له معاضدة ولا معاونة لما فيه من إيهام كونه محقًا، وذلك لا يحل فى الدين، وحقيقة أنه قد تأخر عن البيعة بعض الوقت[٣] وكان ذلك منه "أنه كان يعتب على القوم من حيث استبدوا بالرأى دونه مع محله العظيم وأنه استوحش من ذلك فتأخر عن البيعة لذلك ولغيره نحو التشاغل برسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ثم بأمر فاطمة عليها السلام...

ولا يمنع أن يكون بعضهم رأى منه عليه السلام نفورًا واستيحاشا فظن أنه كاره للبيعة أو مكره عليها.

---

(١) نفسه صـ٢٨٢.

(٢) بعد بيعة أبى بكر قال أبو سفيان لعلى "أرضيتم يا بنى عبد مناف أن تلى عليكم تيم؟ امدد يدك ابايعك فلأملأنها خيلاً ورجلاً" فقال له على "امسك عليك فطالما غششت الإسلام" نفسه صـ ٢٨٢.

(٣) هذا هو المشهور فى كتب التاريخ ولكن القاضى الباقلانى لا يرضى بنسبة التأخير إلى على والزبير ويقول: وليس يجوز لمسلم اتقى الله أن يضيف إلى على بن أبى طالب عليه السلاموالزبير بن العوام التأخر عن بيعته بأخبار واهيه مجيئها من ناحية متهومة لأن تأخرهم عن البيعة مع ما وصفناه من صحتها وثبوتها ضرب من العصيان وليس يمكن اضافة معصية إلى الصحابة بمثل هذا. لأن من ثبت إيمانه وبره وعدالته لا يفسق باخبار الآحاد (التمهيد ص ١٨٨).

وهذه بمنزلة المرأة التى لها إخوة، وفيهم كبير مقدم فى الرأى فإذا زوجها الصغير لم يمتنع أن يستوحش الكبير، ولا يظن به مع ذلك أن كاره"[١].

والقاضى الباقلانى لا يرضى إضافة التأخير إلى على رضى الله عنه ويقول:

أنا نعلم بواضح النظر كذب من ادعى تأخر على والعباس والزبير لأن مثل هذا الخطب الجسيم فى مثل هذا الأمر العظيم بجب إشهاره، وظهوره، وأن ينقل نقل مثله.

فكيف حفظت الأمة بأسرها وعلمت مخالفة على لأبى بكر وغيره من الصحابة فى حكم أم الولد والتوريث، الذى إنما تعلمه الخاصة، وذهب عنها علم تأخره، وتأخر الزبير عن البيعة، حتى لا يرد إلا ورودًا شاذا ضعيفًا وتكون الأخبار الكثيرة فى معارضته ومنا قضته[٢].

والعادة جارية بلزوم مثل هذا للقلوب، واطلاق الألسن بذكره واشتهاره وإظهاره دون طيه وكتمانه، والسهو عنه والإغفال له؟

وإن هذا من العجب العجيب الذى لا يذهب فساده على ذى تحصيل. هذا على أن حرصنا إنما هو على نفى الشين والعار وإضافة العصيان عن جلة الصحابة وعليتها، بالتأخر عن بيعة لزمهم الانقياد لها، والخنوع لصاحبها.

فإن أبوا ذلك ولم يقنعوا إلا بتصحيح الخلاف منهم، قلنا لهم:

فهذا إذا من ذنوبهم، وما نرجو أن يغفره الله لهم وحاشًا للصحابة من ذلك.

على أنه لا نعرف أحدًا روى تأخر على والزبير عن البيعة أيامًا إلا وقد روى عنه فى هذه القصة رجوعهم إلى بيعته، ودخولهما فى صالح ما دخل فيه المسلمون"[٣].

هذا هو رأى القاضى الباقلانى، لا يسلم بتأخر على والزبير عن البيعة.

وعلى فرض أنهما تأخرا فإنما هو ذنب نرجو أن يغفره الله لهما.

---

(١) المغنى جـ٢٠ ق ١ صـ٢٨٦.

(٢) أنظر مع هذا الهامش السابق.

(٣) التمهيد صـ ١٨٨.

ثم يعود لتنزيه الصحابة عن هذا.

والقاعدة عنده أن صلاح الصحابة ثبت بيقين فلا يرفع بشبهة.

ومن قبل القاضى الباقلانى قدمنا رأى القاضى عبد الجبار ورأى من استند إليه كأبى هاشم، فى خلافة أبى بكر.

والقاضى عبد الجبار، وأبو هاشم معتزليان والقاضى الباقلانى أشعرى وغير هؤلاء نأتى برأى إمام الحرمين إنه يقول:

قد كثرت المطاعن على أئمة الصحابة وعظم افتراء الرافضة وتخرصهم.

والذى يجب على المعتقد أن يلتزمه أن يعلم أن جلة الصحابة كانوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحل المغبوط. وما منهم إلا وهو منه ملحوظ محظوظ.

وقد شهدت نصوص الكتاب على عدالتهم، والرضا عن جملتهم بالبيعة بيعة الرضوان ونص القرآن على حسن الثناء على المهاجرين، والأنصار.

فحقيق على المتدين أن يستصحب لهم ما كانوا عليه فى دهر الرسول صلى الله عليه وسلم.

فإن نقلت هناة فليتدبر النقل وطريقه، فإن ضعف رده، وإن ظهر وكان آحادا لم يقدح فيما علم تواترًا منه، وشهدت له النصوص.

ثم ينبغى ألا يألوا جهدًا فى حمل كل ما ينقل على وجه الخبر، ولا يكاد ذو دين يعدم ذلك.

فهذا هو الأصل المغنى عن التفصيل والتطويل[1].

وبذلك نجد الأربعة القاضى عبد الجبار وأبا هاشم، والقاضى الباقلانى وإمام الحرمين نجد الأربعة يتفقون على رأى وهو تنزيه أبى بكر عما نسب إليه.

---

(١) الإرشاد صـ ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

وننتقل إلى خلافة عمر

إن كل ما جاء دليلاً على خلافة أبى بكر وتنزيه الصحابة مما نسب إليهم يؤخذ دليلاً على صحة خلافة عمر.

"لأنه لا خلاف أن أبا بكر إذا صلح للإمامة، وثبتت إمامته أن عمر مثله لأن القائل قائلان.

أحدهما: يقدح فى إمامتهما ويسوى. والآخر: يثبت إمامتهما فيسوى بينهما.

وذلك يغنى عن كلام مفرد فى إمامة عمر[١].

وقد طعنوا فى إمامة عمر بغير ما طعنوا به فى إمامة أبى بكر، ولكن هذه الطعون ليست بالقوة إلى الحد الذى يطعن فى صحة إمامة عمر لأنها كلها شبه تزول بشيء من الفكر والروية.

فمن الطعون التى وجهوها إليه ما يتصل بناحية العلم إذ أخطأ فى أمور ما كان يجوز له أن يخطيء فيها.

فقد بلغ من قلة علمه ـ كما يزعمون ـ أن لم يعلم أن الموت يجوز على محمد[٢] صلى الله عليه وسلم.

وأنه أمر برجم حامل حتى نبهه معاذ بن جبل ورجع عن حكمه وقال لولا معاذ لهلك عمر[٣] وأمر برجم المجنونة حتى نبهه أمير المؤمنين[٤] على، وأن المرأة ردته عندما نهى عن المغالاة فى المهور، "فقال كل الناس أفقه من عمر[٥]".

---

(١) المغنى صـ ٣ جـ٢٠ القسم الثانى.

(٢) يشير إلى ما كان من عمر عند وفاة الرسول الله صلى الله عليه وسلم مما يصيب الكثير عند المصيبة فيمن يحبون.

(٣) أنظر ص ١٢ من نفس المصدر.

(٤) نفسه ص ١٣.

(٥) نفسه ص١٣ هذا ليس عيبًا فى عمر ولكنه من مفاخره والقاضى الباقلانى يروى عن عمر قوله: "رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا".
ثم يذكر قصة المرأة ثم قول عمر "امرأة أصابت ورجل أخطأ وأمير فاضل فنضل (التمهيد ص ١٩٩) وحقيقة هذا من مفاخر عمر، وليت كل الأمراء اتبعوه ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرجع إلى رأى الصحابة فيما ليس فيه روحى.

هذه هى بعض الطعون التى طعنوا بها فى خلافة عمر يريدون أنه كان غير مستكمل للشروط.

ولكنها فى الحقيقة لا تفيد الطاعنين كثيرًا فقد كان الصحابة ينبهون بعضهم، وقد تكون المسألة اجتهادية أو أن عمر لم يكن يعرف أن المرأة حامل فنبهه معاذ إلى حملها وهكذا.

ثم هم يطعنون بأنه أحدث أمورًا فى الإسلام ويضربون لذلك عدة أمثلة منها التراويح.

والرد عليهم:

أن "قيام شهر رمضان قد روى عن الرسول أنه عمله، وتركه، فإذا علم أن ذلك الترك ليس للنسخ صار سنة يجوز أن يعمل بها.

فإذا كان ما لأجله ترك عليه السلام ـ من التنبيه بذلك على أنه ليس بفرض ومن تخفيف التعبد ـ ليس بقائم فى فعل عمر لم يمتنع أن يدوم عليه، فما الذى يمنع من أن يعمل به على وجه يعلم أنه مسنون[1].

إذا فعمر يصلح للخلافة.

والقاضى أبو بكر الباقلانى يثير سؤالا ويجيب عليه هكذا: فإن قال قائل:

قد أوضحتم أن عمر بصفة من يصلح لإمامة المسلمين وابتداء العقد له،فما الدليل على صحة عهد أبى بكر إليه وأنه جار مجرى العقد له؟

قيل له:

الدليل على صحة ذلك أن أبا بكر عهد إليه بمحضر من الصحابة والمسلمين فأقروا جميعًا عهده، وصوبوا رأيه، ولم يقل قائل منهم: لم تعهد فى أمر ما جعل الله لك العهد فيه؟ ولا قال ذلك قائل فى غير مجلسه، ولا بعد وفاته.

ولو كان عهده إلى عمر خطأ فى الدين، لسارعوا إلى تعريفه ذلك وموافقته عليه[2]، ولكان أجدر من قول قائلهم "أتولى علينا فظا غليظا؟"

---

(١) المغنى جـ ٢٠ القسم الثانى صـ٢

(٢) فى القاموس وافقته على كذا واستوفقته سألته الوقوف.

إذا كان ليس له أن يولى أحدًا لا فظًا، و لا رفيقًا.

وكان تنبيهه على ذلك وادكاره به، ومطالبته بتركه أولى من خوضهم فى صفة من يعهد إليه ؛ لأن الكلام فى صفة من يعهد إليه فرع للكلام فى صفة العهد أولا.

وإذا لم يصح العهد جملة سقط الخوض فى صفة المعهود إليه، وزالت المئونة[1].

وإذا فما وجه إلى عمر من طعن أمر ليس له وزن فى ميدان الفكر ولو جاز أن نعول فى الطعن على أمثال ذلك لم يسلم أحد من الطعن[2].

(١) التمهيد ص ٢٠١.

(٢) المغنى ص ٢٨ جـ ٢٠ القسم الثانى وهو من قول أبى على (الجبائى)

وبعد عمر يكون الكلام عن عثمان رضى الله عنهما

فضائل عثمان لا ينكرها أحد[١] وقد اجتمعت فيه شروط الإمامة. وإجماع الأمة على الرضا بإمامته يدل على أنه كان يصلح لها لما أختص به من الفضائل[٢].

ثم إنه تولى الخلافة بإجماع الأمة، ولا يجوز أن يعدل عن ذلك إلا بأمر متيقن يقتضى العدول.

وهم لا يأخذون على عثمان إلا الجزء الأخير من حياته.

وكل ما أتوا به من مطاعن يمكن الرد عليه "ولا يجوز أن نعدل عن تعظيمه وإمامته بأمور محتملة، ولا شيء مما ذكروه إلا ويحتمل الوجه الصحيح[٣].

هذا هو بعض ما طعن به الشيعة فى الخلفاء، غير على والرد عليه.

ولكن الشيعة يردون على هذه الردود[٤].

ونقطة البدء فى هذه الردود أن هناك خلافًا من أول الأمر فالشيعة يرون أن طريق الإمامة ليس من الأمة وإنما بالنص وأما غيرهم فقد اعتقد أن طريق الإمامة هو العقد والاختيار ثم بعد هذا يردون على دعوى الإجماع على إمامة أبى بكر بأننا من أين علمنا إجماع الصحابة ومن الذى يروى عن الصحابة كبارها وصغيرها وخاصها وعامها.

وإذا ادعى بأن الإمامة من تكليف الكبار فقط رد عليه بأن الطاعة واجبة على الجميع فيلزم أن يعرف كل واحد إمامته بطريقها "فإن قال المعتبر بالخواص ولا عبرة بالعوام وخلافهم، أخرجهم من التكليف بطاعة الإمام وجوز لهم التقليد فيما ليس طريقه الاجتهاد.

---

(١) أنظر ص ١٦٦ من هذا البحث.

(٢) ما تقدم فى الدفاع عن إمامة أبى بكر يعتبر دفاعًا عن إمامة عثمان.

(٣) نفسه ص ٤٤.

(٤) من هذا ما تضمنه كتاب "الجواب الحاسم المغنى لشبه المغنى تأليف محمد ابن أحمد بن على بن الوليد وهو ملحق بكتاب المغنى جـ٢٠ القسم الثانى من صـ ٢٦٢. إلى صـ ٢٧٤.

وإن قال المعتبر فى هذا الباب الخاص والعام فقد اعترف بأن العقيدة والبيعة أو الرضا بالبيعة يجب أن يكون حاصلاً من جميع الأمة، لأن إمامة أبى بكر هى المبتدأ بها، وسائر أحكام الأمة تترتب عليها فيجب أن يكون العلم بصحتها حاصلاً لكل مكلف لزمه النظر فى هذا الباب.

فإذا كان كذلك وجب أن يحصل لنا العلم بوقوع البيعة من جميع الصحابة، بل من جميع من اعترف بالرسول، وكان مكلفًا بالعلم بوجوب طاعة الإمام والرضا بالبيعة، دليل على أن العلم غير حاصل لكل من ادعى العلم به"[1].

وفى علمنا بأحوال نفوسنا، أنا غير عالمين بوقوع البيعة من جميع المسلمين.

ثم بعد ذلك يرد على الإدعاء بأن أبا بكر بقى خليفة بين الصحابة ويصرف الأمور، وما روى عن أحد مخالفته أو ادعاؤه أن طاعته غير واجبة، يرد على هذا بأن السكوت وترك الخلاف لا يدل على الرضا وإن قال لم يظهروا الخلاف وقد كان بعضهم ينكر على بعض المسائل رد عليه بقوله "أليس من المعلوم من حال عمر ومن بايع أبا بكر أنهم كانوا يحملون الناس على بيعته بل كانوا يغلظون له القول وينكرون على من يخالف؟"[2].

هذا هو بعض ما مارُد به على إمامة أبى بكر رضى الله عنه.

وقد أتيت به (دفاعًا وردًا) لأصل إلى نتيجة أريد أن أصل إليها، وهى:

إن تكفير المسلم يجب ألا يكون إلا بمخالفته لما علم من الدين بالضرورة كالشهادة وبقية أركان الإسلام.

فإذا لم يكن الأمر بهذه الدرجة فإن الواجب هو الامتناع عن تكفير مسلم فضلاً عن الصحابة رضوان الله عليهم.

وأنا لا أمانع أنه قد يكون للشيعة وجهة نظر فى حبهم لعلى أما أن ينقلوا الكلام إلى أحقية على ـ كرم الله وجهه ـ بالخلافة ثم إلى تكفير أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فلا، فالمسألة اجتهادية.

---

(١) نفسه صـ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) نفسه صـ ٢٦٧.

وما يلام عليه عمر وأبو بكر من أنهما أجبرا بعض الناس على البيعة فعلى فرض صحته نرى أن الظرف كان يحتم حسم الأمور، وأن العصبيات التى كانت موجودة بين العرب قد أخذت تطل برأسها فى هذا الوقت المبكر وما قاله أبو سيفان معروف.

فلو تركت المسألة للأخذ والرد لكان من الممكن أن تقع الحروب الأهلية ولو كانت قد وقعت مع ما حصل من ارتداد العرب وعزمهم الإغارة على المدينة.

لو حصل هذا لكانت القاضية.

إن بعض المسائل تحتمل الأخذ والرد كالمسائل الأخرى الفقهية مثلاً ولكن بعض المسائل الأخرى لا تحتمل هذا بحال كتلك التى تتعلق بمصائر الشعوب فى أوقات الفتن.

وما حصل من الحروب بعد ذلك شاهد على هذا، وننتهى إلى أن فكرة التكفير فكرة خطيرة يجب أن يراجع كل واحد نفسه فيها.

وتكفير الخلفاء بسبب الخلافة ليس تاريخًا يروى ولكنه واقع نعيشه، فمازالت المسألة تشغل الأمة حيث الشيعة والسنة لازالا موجودين ونفس القضايا تثار خاصة من الشيعة بنفس العنف الذى كانت تثار به قديمًا[1].

(١) فى الآونة الأخيرة قامت فكرة التقريب بين المذاهب ولكن العمل لازال يتعثر فيها بسبب تمسك كل من الطرفين برأيه وأنا فى الحقيقة لا أعرف كيف نوفق بين رأى إنسان يرى أبا بكر الخليفة الأول وصاحب رسول الله فى الغار ولو وزن إيمان الأمة بإيمان أبى بكر لرجح إيمان أبى بكر، كيف نوفق بين هذا وبين إنسان يرى فى أبى بكر ضد هذه الصفات على ما تقدم من رأى الشيعة ولكننى أرى أنه يجب التوفيق بين أصحاب المذاهب بمعنى أن يمسك كل واحد لسانة وقلمه فلا يتناول الاخر بسوء.